اعترافات فتى العصر

للفريد دى موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الجزء الخامس

الفصل الثالث

وتحسنت صحة بريجيت وكانت أعلنت لى أنها مستعدة للرحيل فى حال شفائها فلم أطاوعها بل رأيت أن ننتظر خمسة عشر يوماً أيضاً ريثما تستعيد قواها لتحمل مشاق السفر

وبقيت ممنّعة بصمتها الحزين فلم أستطع اقتيادها إلى مصارحتى بما تضمر ، وقالت إن سبب انقباضها هو الرسالة التى وردت اليها ، ملحّة علىّ بألا أطلب منها إيضاحاً فى هذا الصدد فاضطررت إلى مجاراتها ، فثقل علينا الانفراد حتى لم يعد يستقر بنا مقام كل مساء إلا فى المسارح واللاهي فنكتفى بالقعود جنباً إلى جنب ، فإذا أشجانا نغم أو شاقنا بيان شددنا يداً بيد ، أو تبادلنا نظرات التفاهم والولاء ؛ غير أننا كنا نحتفظ بالصمت أيّان توجهنا

وكنت أحفز عشرين مرة فى النهار لأرتمى عند أقدامها متوسلاً إليها أن تعيد إلىّ سعادتى أو تقضى على فيردنى ما يبدو على وجهها من شحوب عند ما تحس بما أنوى ، إذ كانت تقف وتولّى أو ترسل إلىّ بكلمة باردة تتجمد منها كلمات قلبي على شفتى

وكان سميث يأتى إلى مسكننا كل يوم فلا أشعر بنفور منه لما كان يبدو عليه من حسن النية والسذاجة ، ولاشتراكه فى بحث مسألة رحيلنا بكل إخلاص ، فى حين أن زياراته المتكررة كانت سبباً لما حل من اضطراب على بيتنا ؛ وبالرغم من أن زيارتى له كانت قد أبقت فىّ شكوكا مستغربة . وكنت حدثته عن الرسائل التى حملها إلى بريجيت فما لاحت عليه دلائل الاستنكار ، بل رأيته يبدى من الحزن بقدر ما أشعر به ، فاعلن لى أنه كان يجهل ما فى هذه الرسائل وأنه لا يقر لهجتها ؛ ولو أنه عرف بما فيها لما كان حملها . وما كان لى أن أذهب إلى الاعتقاد بوجود سر ما بين سميث وبريجيت فى حين أنها كانت تعامله معاملة لا تتجاوز حدود المجاملة ، ولهذا كنت أقابله بسرور بالرغم من وقوف كل منا تجاه الآخر موقف المحاذر المتكلف . وكان قد رضى بأن نعهد إليه بمقابلة انسباء بريجيت بعد سفرنا والعمل على تفادى مقاطعتهم لها ، وكانت لسميث حرمته فى البلدة ، لذلك توقعت أن يكون لتوسطه خير نتيجة ، واعترفت له بهذا الجميل . وكان كل شىء فى خلق هذا الشاب يدل على نبله إذ لم يكن يدخر وسماً لإعادة السرور إلينا عند اجتماعنا به فنتأكد أن ما يطمح إليه هو أن تسود السعادة بين بريجيت وبينى ، وما سمعناه مرة يورد ذكر علاقتى بها إلا وهو يبدى عقيدة الرجل الذى يرى فى الحب أقدس رابطة تضم شخصين أمام الله . وهكذا كان سميث فى تقديرى صديقاً مخلصاً أوليه ملء ثقتى . غير أن الأحزان التى كان يغالبها فتبدو عليه بالرغم منه كانت تثير بى أفكاراً غريبة فأستعيد ذكرى الدموع التى رأيت هذا الشاب يذرفها وأتمثل وقوعه

مريضاً فى الزمن نفسه الذى مرضت بريجيت فيه فأحس من كل هذا بوجود تفاهم حزين يسود بينها وبينه ، فلا أملك نفسى من التألم والاضطراب

لقد كانت أقل ريبة تدفع بى من قبل شهر إلى الاندفاع مع غيرتى اندفاعاً جنونياً ، فأصبحت لا أجد أمراً يدفعنى إلى الارتياب ببريجيت فأقول مالى وللسر الذى تخفيه إذا كان هنالك سر مادامت مصممة على الرحيل منى ؟ وهب أن بينها وبين سميث أمراً تخفيه عنى فهل فى ذلك ما يستوجب اللوم وليس بينهما سوى مودة واشتراك فى أحزان ؟ لقد عرفته طفلا وهي تراه الآن بعد كرور السنين فى زمن تستعد فيه لمبارحة فرنسا ليتقدم إليها كآلة فى يد القدر ليبلغها ما يكدرها فى موقفها الحرج ، فلا غرابة إذن أن يسود عليهما مثل هذا الحزن من تذكر الماضى . وهل من موجب للوم إذا هو واجهها بنظرات الآسف الحزين إذ يراها مقدمة على سفر طويل معرضة لحياة مضطربة ، وقد أصبحت مضطهدة يكاد ينكرها أهلها وأصحابها ؟

وعند ما كانت تمر هذه الخواطر ببالى كنت أرى أن علىّ أنا أن أقف بين بريجيت وبين سميث لأدخل إلى نفسيهما الاطمئنان مؤكداً لها أن يدى ستكون خير عضد لها إذا شاءت أن تستند إليها ومؤكداً له أننى ممتن لما يبديه نحونا من عطف ، ولما سيؤديه من خدمة . كنت أرانى مدفوعاً إلى هذا دون أن أجسر على القيام به إذ كنت أشعر بصقيع فى دمى فأبقى دون حراك على مقعدى

وعند ما كان سميث ينصرف إلى مسكنه فى المساء كنا نبقى صامتين أنا وبريجيت أو يدور حديثنا عليه وما كنت أدرى حقيقة الدافع الغريب الذى كان يحدو بى إلى الاستفهام من بريجيت عن تفاصيل حياته ، وما كان لديها سوى ماذكرته فيما تقدم ، لأن حياة هذا الشاب كانت عبارة عن فقر واستقامة وخمول ذكر ، وما تستدعى مثل هذه الحياة أكثر من كلمات وجيزة لسردها ؛ غير أننى كنت أستعيد إيراد حوادثه وأنا لا أدرى سبباً لاهتمامى بها

وحللت تفكيرى فأدركت أن فى قرارة نفسى ألماً خفياً كنت أنكره على ذاتى . ولو أن هذا الشاب جاء إلينا فى أيام سعادتنا فحمل إلى بريجيت رسالة ثم تجنب الالتقاء بي فى المسرح ثم ذرف دموعاً لا أدرى سببها فهل كنت أقف عند مثل هذه الحوادث وأنا ممتع بسعادتى ؟ ولكن الأمر قد وقع فى زمن كنت أصطدم فيه بأحزان بريجيت وأشعر أن معاملتي الماضية لها قد ولدت فيها هذه الأحزان ؛ ولو أننى عاملتها طوال الستة أشهر الماضية المعاملة الحسنة لما كنت أجد من سبب لتكدير صفو حياتنا. وقد كان سميث ، بالرغم من كونه رجلاً عادياً ، متصفاً بالأخلاق الرضية ، ولا تخفى صفاته الطيبة عن الناظر إليه فلا يجد بداً من الوثوق به ، ولذلك كنت مضطراً إلى أن أقول فى نفسى : لو أن سميث كان هو عاشق بريجيت لما كانت تتردد فى الرحيل معه راضية مسرورة

كنت أرجأت سفرنا بملء اختيارى فأصبحت الآن نادماً على ذلك . وما كانت بريجيت تغفل عن تذكيرى بالسفر فتقول لي : ما الذى يمنعنا عن الرحيل بعد أن شفيت من دائى ؟

وفى الواقع ما كنت أدرى سبباً لتأخرى . ولكم وقفت مستنداً إلى الموقد ، أنظر تارة إلى سميث وطوراً إلى خليلتى فأرى كلا منهما شاحب الوجه صامتاً فأحار فى تعليل هذه الحالة ؛ غير أننى كنت

أشعر بأن ليس هنالك سرّان بل سرٌّ واحد مشترك ، فما تستقر الريبة مني كما كانت تستقر من قبل في غيرة مريضة بل في أعمق غريزتي كأنها أمر واقع لا يقاوم . وفي غرائز الانسان أمور جد مستغربة ، ومن أغربها أنني كنت أجد شيئاً من اللذة حين أترك بريجيت وسميث يتحادثان قرب الموقد لأذهب تائهاً على الأرصفة وأستند إلى الأعمدة الممدة للنهر مسرحاً أبصاري على مركض المياه كما يقف من لا عمل له متلهياً بالنظر إلى المارة في الشوارع

وعند ما كان يدور الحديث بينهما عن الأيام التي قضياها في بلدتهما فتوجه إليه بريجيت الخطاب بلهجة الأم مذكرة إياه الأيام التي قضياها سوية كنت أحسبني متألماً ، ولكنني كنت في الوقت نفسه أشعر بشيء من السرور فأستنطقهما عن تلك الأيام وأحدث سميث عن أمه ، وعن أعماله ، وعن أمانيه في المستقبل فأفتح له مجالاً لإظهار حقيقة شخصيته على خير ما تظهر به فأنتزع من تواضعه صورة فضائله؛ وكنت أقول له إنك شديد التعلق بأختك (فاي) ، متى تنوي تزويجها ؟ فكان يقول والاحمرار يعلو وجهه إن إنشاء الأسرة يكلف كثيراً ، ولعله يتمكن من تحقيق هذه الأمنية بعد سنتين أو أقل من هذه المدة إذا سمحت حالته الصحية بالقيام ببعض أشغال إضافية تنيله مكافأة فوق راتبه ؛ ثم يقول إن في البلدة عائلة لها كفافها من العيش اتفقت مع أسرته لتزويج أخته من ابنها البكر ، وإنه تخلى لأخته عن حصته في إرث أبيه ، وسوف لا يعدل عن ذلك وإن أصرّت أمه على الرفض ؛ ثم يضيف إلى ذلك قوله : إن للشاب ساعدين يؤمنان حياته ، أما الفتاة فحياتها متوقفة على زواجها . وكان سميث يعرض أمامنا مشاهد حياته وخفايا نفسه وأنا أتفرس في ملامح بريجيت لأقرأ تأثير هذه المشاهد عليها

وكنت أشيع سميث إلى الباب عند انصرافه ثم أقف مستغرقاً في التفكير إلى أن ينقطع صوت وقع أقدامه فأعود إلى الغرفة لأنظر إلى بريجيت وهي تهيأ لخلع ثيابها فأقف متمتعاً بجسمها الرائع وبما فيه من جمال امتلكت كنوزه فأراها تسرّح شعرها الطويل وتعقد فوقه عصابة ثم تترك رداءها ينزلق عن جسمها إلى الأرض لتطفر نحو سريرها كأنها إلهة الجمال تندفع إلى البحر للاستحمام في مياهه . وكنت أنا من جهتي أنطرح على سريري دون أن يخطر لي ببال إمكان استسلامها إلى سميث ، فما كنت أقصد التربص لها للوقوف على جلية الأمر بل كنت أتمنى وأقول في نفسي إنها لجد جميلة ، وما سميث المسكين إلا شاب طيب القلب ؛ ولكل منهما أحزانه كما أن لي أحزاني . وهكذا كنت أشعر بانقباض قلبي وأحس في الوقت نفسه أن حملاً ثقيلاً سقط عنه

وفتحنا صناديق السفر فاتضح لنا أننا نسينا بعض الحوائج فعهدنا إلى سميث بشرائها ، وما كان هذا الشاب ليتردد في القيام بكل ما نكلفه به . وعدت يوماً إلى البيت فرأيته جاثياً على الأرض منهمكاً في إقفال صندوق كبير ، وكانت بريجيت أمام البيانو الذي كنا استأجرناه لمدة إقامتنا في باريس وهي تعزف عليه أنغاماً عزيزة عليّ فوقفت في ممشى الغرفة وكان الباب مفتوحاً أتنصت إلى هذه النغمات وهي تنفذ إلى أقصى مشاعري ، وما سمعتها من قبل تثيرها بمثل هذا الشجى وهذا الخشوع . وكان سميث يتلذذ بالإصغاء إليها وهو على ركبته يشد حابل الصندوق . ثم وقف وقد أكمل عمله وبقيت بريجيت

ملقية أناملها على معزف البيانو وقد شخصت أبصارها إلى الآفاق . ورأيت للمرة الثانية الدموع تنحدر من عيني الشاب فكادت عيناى تذرفان مثلها ، فتقدمت نحوه دون أن أدرى ما أفعل ومددت يدى لأصافحه ، فارتعشت بريجيت وظهرت دلائل الدهش على وجهها وقالت لي : أكنت هنا أنت ؟ فقلت : إنى كنت هنا . أنشديني يا عزيزتى وأسمعيني صوتك أيضاً . فعاودت الإنشاد دون أن تجيبنى بكلمة ، ورأت مايفعل إنشادها بى وبسميث فخففت نبرات صوتها تدريجياً حتى حسبت نغمات الشعراء همساً يتردد فى الآفاق من بعيد . ونهضت فألقت قبلة على وجنتي ، وكان سميث لم يزل قابضاً على يدي فشعرت أنه يشد عليها بحركة مرتعشة وقد علت وجهه صفرة الموت

وحملت إلى البيت مرة أخرى مجموعة مناظر عن بلاد سويسرا فجلسنا نحن الثلاثة نقلب صفحاتها فاستوقف انتباه بريجيت أحد المناظر فى مقاطعة « الفود » على مقربة من طريق « بريك » حيث يمتد واد ظليل تحف به أشجار التفاح وترتعى المواشى فى مروجه ، ووراء هذا المنظر كانت تلوح قرية لا يتجاوز عدد مساكنها العشرة ، وهي مبنية بشكل مدرج على منحدر التلال ؛ وكان يظهر فى مقدمة هذا المنظر رسم فتاة تلبس قبعة من القش وهى جالسة إلى جذع شجرة وأمامها خادم المزرعة يدلها بعصاه الممددة على الطريق التى قطعها من جهة الجبل حيث كانت تظهر مناظر جبال الألب تكللها ثلاثة تيجان من الثلج مرصعة بأشعة الشمس الغاربة . وكان هذا المنظر على غاية من الجمال يلوح الوادي المخضل فيه كأنه بحيرة من الأعشاب الندية . فسألت بريجيت عما إذا كانت تود أن تذهب إلى هذه القرية . وما انتظرت جوابها فأخذت قلما ووجهته نحو الرسم ؛ وإذ سألتني بريجيت عما أريد أن أفعل ، قلت لها إنني سأحاول بتعديل بعض الخطوط على وجه الفتاة الماثلة فى الرسم أن أجعله شبيها بوجهك ؛ ولعلني أوفق أيضا لوضع بعض الشبه من وجهي على وجه الجبلى الجسور

وأعجبتها هذه الفكرة فرأيتها تأخذ محفاة فتمرها على الوجهين فبدأت أنا برسم بريجيت مكان وجه الفتاة ، وحاولت هي أن ترسم وجهى مكان وجه الفتى ، ووفقنا كلانا إلى ما قصدنا فإذا بي وبها على مدخل القرية في سويسرا . وبعد أن ضحكنا أمام هذا المشهد بقيت المجموعة مفتوحة ، وإذا بالخادم يدعونى لأمر ما فخرجت . ولما عدت إلى الغرفة رأيت سميث مستنداً إلى الخوان وهو مستغرق فى التأمل حتى أنه لم ينتبه لدخولى . وجلست قرب الموقد حتى إذا رفعت صوتى وخاطبت بريجيت انتبه سميث لوجودي فرفع رأسه وتفرس فينا لحظة ثم استأذننا بالإنصراف فجأة . وبينما هو يتجه من المشى إلى الباب رأيته يصفع جبينه براحته فنهضت عن مقعدى وهرعت إلى غرفتى وقد انطبعت فى عينى هذه الحركة التى تنم عن الألم وأنا أسأل نفسى ماذا عسى أن يكون هذا . . ؟ وضممت راحتى بحركة الاسترحام دون أن أدرى إلى من أتوجه بها ، أإلى ملاك سعادتى أم إلى شيطان بؤسى ؟

الفصل الرابع

وكان قلبي يهيب بى إلى الرحيل فأرجىء السفر من يوم إلى يوم إذ كنت أشعر فى كل مساء بلذة مريرة تسمرني فى مكانى . وكنت فى كل مرة أتوقع فيها زيارة سميث يملكني اضطراب لا يهدأ حتى

أسمع قرع جرس الباب منذراً بوصوله . فما هي يا ترى هـذه العاطفة المضمرة فينا يستهويها الألم ويشتد بها الشقاء ؟

وكنت كل يوم أرتعش لكلمة أسمعها أو لبارق لحظ أباغته ثم تردني هذه الكلمة نفسها وهذه البارقة عينها في اليوم الثاني إلى الحيرة والارتياب بريبتي . وما أدري لماذا كنت أرى بريجيت وسميث غارقين في بحر من الأحزان كما لا أعلم لماذا كنت أشخص متأملاً فيهما وأنا لا أبدي ولا أعيد في حين أنني ما كنت أملك ثورة نفسي في مثل هذا الموقف . لقد كنت أحس بشيء من الخيال وفيّ من الغيرة العنيفة في الحب ما يشبه غيرة الشرق في لهب غرامه

وكنت أمضي أيامي في الانتظار دون أن أعرف ما أنتظر . حتى إذا أمسيت قعدت على سريري قائلاً : لأفكرن في هذا الأمر ؛ فأسند رأسي بيدي ولا ألبث حتى أصيح : لا إن هذا مستحيل . ثم أعود إلى مثل هذا العمل في الليلة التالية

وكانت بريجيت تبدي لي من التحبب أمام سميث ما لا تبدي مثله ونحن منفردان ، حتى إنها ذات ليلة كانت ذاهبة معي في مجادلة قاسية ، فما سمعت صوت سميث في البهو حتى هرعت إليّ وقعدت على ركبتي ؛ أما هو فكان يبدو في كل آن كأنه مستغرق في أسى لا ينقطع عن مجالدته ، فكانت حركاته معتدلة ولا يتكلم إلا متمهلاً ؛ غير أنه لم يكن يتمالك أحياناً من الإتيان ببعض حركات تشذ بعنفها عن حالته العادية

أفكان تململي في موقفي ونفاد صبري نوعاً من الفضول ؟ ولو جاءني أحد وقال لي : مالك ولهـذه الأمور ؟ إنك حقاً لفضولي . فهل كان يمكنني أن أفسر عاطفتي بغير التحرش والفضول ؟

إنني أذكر حادثة وقعت لي على الجسر الملكي رأيت فيها رجلاً يهلك غرقاً

كنا رهطاً من الأصحاب نتمرن على السباحة فذهبنا تحت الجسر يتبعنا مركب فيه سباحان من متخصصي الانقاذ ، وتبعنا رهط آخر حتى بلغ عددنا الثلاثين . وأصاب أحد رفاقنا احتقان أورثه الدوار فاذا به يصرخ مستنجداً وقد رفع يديه يلوح بهما على سطح الماء ، وما عتم أن اختفى أثرهما . فألقينا بأنفسنا في اليم ثم عدنا بلا جدوى ، وما أخرج الغريق إلا بعد مرور ساعة إذ وجدت جثته عالقة تحت كومة من الأخشاب

لن أنسى ما حييت ما شعرت به وأنا أغامر بنفسي تحت أطباق المياه ، فإنني كنت أرسل أبصاري في اللجج القاتمة تدور بي بصخبها المختنق ، وأذهب غائصاً على قدر ما يطيق صدري كبت أنفاسي ، ثم أطفو على سطح الماء لأتبادل بعض كلمات مع رفاق الغاطسين مثلي ، ثم أعود إلى الأعماق لاصطياد الإنسان الغريق وملء قلبي الأمل والارتياع . وما كنت أتمثل يدي الغريق تقبضان عليّ برعشة الموت حتى أشعر بلذة يمازجها هلع لا أستطيع التغلب عليه . وطفوت راجعاً إلى ظهر المركب وقد أنهكني التعب

إن من نتائج الفحشاء إذا هي أبقت في الإنسان على شيء من إنسانيته أن تدفع به إلى هوس الاستطلاع . وقد تكلمت عما انتابني من هذا الهوس في زيارتي الأولى لديجنة ، وسأذهب الآن في وصف الفضول إلى أبعد ما وصلت إليه

تقضي الحقيقة على كل إنسان أياً كان أن تغوص يده عند ما تحين ساعته إلى ملمس العظام من أي جرح يتكشف عنها ، وما تعرف حقيقة الحياة إلا

بهذا الإختبار . وبعض الناس يتراجعون خوفاً أمام العظم العرّى والبعض الآخر ينالهم الارتياع فيرتمشون كالأشباح لا يتقدمون ولا يتأخرون . وهنالك أناس يعدمهم هذا المشهد فيموتون ولعلهم أفضل الأحياء . ويمر الحدث على أكثر الناس فيتابعون سيرهم ملفّعين بالنسيان ، والأجيال تتابع على هذا السبيل نحو الفناء

وقد قضى على بعض الأشقياء فى مثل هذا الموقف ألا ينكصوا على أعقابهم ولا يترددوا فلا هم ينسون ولا هم يموتون ، فإذا ما قدر عليهم أن يصطدموا بكارثة ، وما الكوارث إلا كاشفة الحقائق للبصائر ، فإنهم يقتحمونها ويمدون أذرعهم نحوها فهم كالغائص تحت أطباق اليم يستفزهم نوع من التوّله بالغريق وقد كلح وجهه فى قبضة الموت فيتلمسون موضعه حتى إذا قبضوا عليه ضموه إلى صدرهم وتحروا عن منبض حياته

هؤلاء هم المثلون بخمرة الفضول الطامحون إلى معرفة ما وراء كل مظهر ، يقضون عمرهم فى الارتياب ومحاولة بلوغ اليقين فيقفون جهودهم على استكشاف ما فى الحياة كأن الله قد بثهم عليها عيوناً وأرصاداً فيرسلون أفكارهم مشحوذة كالسهام وتقطع أحشاءهم نهشة الفهد الكاسر

ليس كالفسّاق من يستولى عليهم مثل هذا الهوس لأنهم يقفون أمام نهر الحياة فلا يكتفون بالنظر إلى الماء يجرى صافياً فى مركضه بل يندفعون أبداً إلى سبر أعماقه ومراسيه . فهم إذا ماخرجوا من مرقص هرعوا إلى المواخير ولما تزل أكفهم ندية من مصافحة يد عذراء قد تكون ارتعشت بين أناملهم فيطرحون أرديتهم عنهم ويجلسون إلى مائدة ليكرروا ـ وهم يقهقهون ضحكا ـ آخر عبارة نطقوا بها أمام جميلة من فضليات النساء

أفما كان بوسع هؤلاء الأغرار أن يرفعوا ببذل بعض دريهمات الرداء المنسدل كالنقاب على مواضع العفة فما يكون تقديرهم للحياة وهم منها فى موقف الممثلين وراء ستائر المسرح الداخلية ؟ ومن كهؤلاء الناس يذهب إلى قرارة الأشياء وقد تعود سبرها محتقراً جاحداً ؟ أفما سمتهم ولا بيان لهم إلا التعابير الجافية المتهكمة القذرة فهم لا يرون الافصاح عن الحقيقة إلا بها ، وما سائر التعابير فى عرفهم إلا سخافات وتمويه ، فإذا هم قصوا عليك واقعة اكتفوا بالبيان عن احساسهم منها فلا يخرج من شفاههم إلا سفيه الكلام ؛ فعبثاً تفتش على الروح فيما يقولون وما يتلفظون إلا بالحرف الميت . فإذا أراد أحدهم أن يقول : لقد أحبتنى هذه المرأة ، قال : لقد تمتعت بوصال هذه المرأة . فهو لا يقول : أحب ، بل يقول : أشتهى . وبدلاً من قوله إن شاء الله يقول : إن شئت أنا

ويعلم الله ما يدور فى خلد هؤلاء الناس وبماذا يناجون أنفسهم

ومن كانت هذه حاله فلا بدع إذا هو استغرق فى الكسل أو اندفع بحماسة الفضول إلى هتك الأستار ، لأنه بينما يتمرن على تمثل الأمور على أسوأ حالاتها لا يروق له أن يرى فى العالم من يحسن به ظنا ، فيعمد إلى سد أذنيه فى تكاسله . وهكذا يدع الأب ابنه حراً فى ارتياد الأماكن التى تحلو له قائلاً : للشبيبة أن تحيا حياتها ؛ غير أن الابن لا يتمالك نفسه

عند عودته من التفرس فى وجه أخته ، وقد انتصبت فى مخيلته الوقائع الحيوانية التى تصدمه في كل آن فيتساءل عما إذا كانت أخته ليست من طينة المرأة التى كان فى غرفتها ... ويدور القلق بالفتى فيرعى أحشاءه الارتياب

إن سوء الظن الدافع إلى الاستكشاف إنما هو داء وبيل ينشأ من ملامسة الأرجاس يدفع بالمبتلين به إلى التجول كالأشباح بين المقابر عاملين على هتك ما تستر لحودها . وما هذه النزعة إلا عذاب أليم يعاقب الله به من ارتموا على مزالق الضلال ، فهم يتشوقون أبداً إلى التيقن من تداعى كل من حولهم إلى الانهيار . ولعل هذه النزعة تملأهم ارتياعاً ولكنهم مسوقون كرهاً إلى التحرى والتجسس ومنازعة الوقائع أسرارها فيحنون الرأس على الزوايا كالمعار يوجهها لتركيز ما يقيمه فى خياله . فإذا ما عثروا على دليل يثبت الشر علت شفاههم بسمة الرضى ؛ وإذا ساورهم الشك فى وجوده مالوا إلى افتراضه والإيمان به ؛ وإذا صدمهم الخير تطلعوا إلى ما وراءه

إن آية هؤلاء القوم قولهم من يدرى ؟ تلك كلمة ابليس ألقاها فى وجه السماء وقد أغلقت دونه بابها . ولكم أشقت هذه الكلمة من بنى البشر على ممر الأجيال ، ولكم جرت من الويلات وأدت إلى مجاذر ، ولكم ذهبت كالمنجل يقطع أعمار السنابل الخضراء قبل نضوج حبوبها . إن ألوف الأسر قد دفنت تحت أنقاض مساكنها منذ دوت هذه الكلمة بين جدرانها

من يدرى . من يدرى . يا لها من كلمة دنيئة ! وخير للناس من أن يتفوهوا بها أن يقتدوا بالأغنام تسير إلى المجزر وهي تقضم الأعشاب مطمئنة على طريق مذابحها ، أفليس من يحسن الظن ويحيا مطمئناً خير ممن يصدم الحياة بما يدعوه نباهة وحزماً وهو يغذى تفكيره بمبادىء « لاروشفوكولد » ؟

وهل من واقعة يمكننى أن أوردها مثلا أشد إثباتاً لما أوردت من الحادثة التى أقصها

لقد كانت خليلتى مستعدة للرحيل ، ولا تنتظر إلا كلمة أقولها لتصدع بها وما كان حزنها خافياً عنى فلماذا بقيت ؟ وما ذا كان سيقع لو أننا شددنا الرحال؟

لقد كان علىّ أن أقتحم مخاوفى حتى إذا مرت ثلاثة أيام على رحيلنا نسينا كل ما وراءنا ، وهل كان لها أن تفكر فى سواى وهى منفردة بى ؟

لماذا وقفت مهماً بسر لا يتهدد سعادتى ؟ إن بريجيت كانت مستسلمة لى فهل كان على أن أذهب إلى ما وراء استسلامها ؟

كان لى أن ألقى قبلة على شفاهها فأضع بها حداً لكل شقاء ، ولكننى تخيرت مسلكا آخر . وهذا ما فعلت :

كان سميث قد تناول العشاء معنا ذات ليلة فتركته مع بريجيت وانسحبت حالاً ؛ وعند ما أقفلت الباب سمعتها تنادى الخادمة طالبة إحضار الشاى

وعند ما دخلت الغرفة فى اليوم التالى مررت صدفة أمام المائدة فرأيت عليها إبريق الشاى وقربه فنجان واحد ؛ وما كان أحد دخل قبلى لأفترض أن الخادمة أخذت أحد الفنجانين ، فأرسلت أنظارى فى جوانب الغرفة فلم أجد للفنجان الآخر أثراً

فسألت بريجيت عما إذا كان سميث تأخر عندها ، فقالت إنه بقى حتى نصف الليل . فسألتها عما إذا

كانت نامت دون أن تدعو أحداً من الخدم فقالت: لم أدع أحداً لأن الكل كانوا نياماً

فذهبت أنظاري في جوانب الغرفة مرة أخرى تفتش على الفنجان . في أية مهزلة يرى على المسرح غيوراً تذهب به حماقته إلى التفتيش عن فنجان ؟ وما كان قصد بريجيت وسميث من شربهما في فنجان واحد يا ترى ؟ ...

وما كانت هذه الفكرة على شيء من الوجاهة في غرابتها ، ومع ذلك بقيت أذرع الغرفة ذهاباً وإياباً والفنجان في يدي حتى هزتني ضحكة عصبية قهقهت بها طارحاً الفنجان إلى الأرض فانحطم وتطايرت كسره بداداً ، ومشيت أزيد هذه القطع تكسيراً بضربات قدمي

ونظرت بريجيت إلى وهي صامتة ، واستمرت على معاملتي ببرودة تكاد تكون احتقاراً في اليومين التاليين ، وهي تزداد ملاطفة لسميث حتى أنها بدأت تدعوه باسمه « هنري » ولا تكف عن الابتسام له

وقالت ذات مساء بعد العشاء إنها تريد الخروج لاستنشاق الهواء وعرضت عليّ أن نذهب مشياً إلى الأوبرا ، فرفضت مرافقتها وقلت : إذهبي مع سميث وخلياني . فاستندت إلى ذراعه وتمشيا وبقيت وحدي كل السهرة أحاول أن أدوّن مايمنّ لخاطري فيتمرد البيان عليّ ، وألجأ إلى استعراض شكوكي والتلذذ بها فأمعن فيها كالعاشق لاينفرد بنفسه حتى يخرج من جيبه رسم محبوبته محدقاً فيه مستغرقاً في أحلام غرامه

وعلقت أبصاري على المقعدين حيث جلس سميث وبريجيت كأنني أستنطقهما سرّاً يكتمانه مستعيداً لخيلتي كل ما طرق أذني وما لاح لعيني ، وكنت أتجه من حين إلى آخر إلى الغرفة التي ربتنا فيها حقائب السفر منذ شهر فأفتحها وأفحص ما وضعت فيها يداها الناحلتان من حوائج وكتب وأنا أتنصت إلى فرقعة بحلات العربات في الشارع فيخفق لها فؤادي .

وبسطت على الخوان خريطة أوروبا الشاهدة على ما بنينا من أمان واستسلمت أمامها لأفجع تشاؤم . ومن الغريب أنني لم أكن أشعر في آلامي بما ينم عن غضب أو غيرة ، فقد كانت ريبتي تقف مترددة لا تقتحم تعيين أمر تبني عليه شكا جلياً . فيا للعقل البشري من قوة تخلف من المظاهر ما يعذب القلب ويشقيه ! وما أشبه الدماغ بسجون ديوان التفتيش في القرون الوسطى وقد علقت على جدرانها من الآلات مايحيرك فلا تدري أهي ألاعيب أطفال أم مكامن تعذيب

وهل لأحد أن يبين لي ما الفرق بين قولي لخليلتي : إن جميع النساء خائنات وبين قولي لها : أنت خائنة ؟

ومرت في رأسي خواطر أشبه بأدق القياسات المبنية على السفسطة ، فكنت أتسمع الى ما يدور من جدل بين عقلي وضميري فأسمع الأول يقول :

— إذا فقدت بريجيت فماذا يكون ؟

فيقول الضمير : انها سترحل معك

— واذا كانت تخادعني ؟

— وهل لها أن تخدعك وهي من طلبت في وصيتها أن يصلي الناس من أجلك

— لعلّ سميث يحبها ؟

— ما لك ولهذا أيها المجنون وأنت الواثق من أن محبوبها هو أنت لا سواك

— اذا كانت تحبني فما هو سبب حزنها ؟

— ذلك سرّها فاحترم هذا السر

— أتكون سعيدة يا ترى اذا أنا اختطفتها ؟

— ان سعادتها متوقفة على حبك لها

— لماذا تضطرب عند ما ينظر سميث إليها فتحول عن عينيه عينيها ؟

— ذلك لأنها امرأة ولأنه في شرخ شبابه

— لماذا يعلو وجهه الاصفرار عند ما تنظر هي إليه ؟

— لأنه رجل ولأنها رائعة الجمال

— لماذا انطرح على صدري عند ما كنت في زيارته ولماذا ضرب في أحد الأيام جبينه براحته ؟

— لاتسل عما يجب أن تجهل

— ولماذا وجب علي أن أجهل هذه الأمور ؟

— لأنك حقير ضعيف ولأن الله وحده علام الغيوب

— ولكن لماذا أحس بهذه الآلام ولا أفكر بهذه الأمور دون أن يسود الاضطراب أعماق روحي ؟

— تذكر أباك واصنع الخير

— ولكن ما الذي يصدني عن هذا التذكار وعن هذا البر ولماذا يجتذبني الشر إليه ؟

— انطرح جاثياً على ركبتيك واعترف لأنك إذا كنت أسأت الظن فقد ارتكبت سوءا

— وما هو ذنبي إذا كنت أتيت الاثم ولماذا تخلى الخير عني ؟

— ذلك لضلالك في المسالك المظلمة وليس لمن يسير في الظلمة أن ينكر النور ، فلماذا تحشر نفسك في زمرة البغاة ؟

— لأنني أحاذر الدخول في زمرة المخدوعين

— لماذا تحيي لياليك بالسهر ؟ إن الأطفال ينامون عند ما ينسدل ستار الظلام ، ولماذا أنت منفرد الآن ؟

— ذلك لأنني أفكر وتساورني المخاوف والشكوك

— ومتى تؤدي فريضة الصلاة ؟

— عند ما يعود إيماني إليّ . لماذا خدعني الناس ؟

— ولماذا تخدع الناس أنت الآن أيها الجبان ؟ أفليس أولى بك أن تموت إذا كنت لا تحتمل آلامك ؟

هكذا كان يتجادل في صوتان هائلان يتناقضان فأسمع صوتاً ثالثاً ينتحب بينهما قائلا

— يا للطهارة المفقودة ويا لأيامي الماضيات !

« يتبع » فليكس فارس

تاريخ الأدب العربي

للأستاذ أحمد حسن الزيات

الطبعة السادسة

في حوالي ٥٠٠ صفحة من القطع المتوسط

يعرض تاريخ الأدب العربي منذ نشأته إلى اليوم

في صورة قوية تحليلية رائعة

ثمنه عشرون قرشاً ويطلب من إدارة الرسالة

ومن لجنة التأليف ومن سائر المكاتب